تاريخ ما أهمله التاريخ

فـــؤاد زكـــريـــا

الكتـــــاب: تاريخ ما أهمله التاريخ/ فؤاد زكريا
المـــــؤلف: بطيشة، عمر
النـــــوع: مصر - تاريخ
تصميم الغلاف: جيهان متولي
إخـــراج داخلي: بثينة عزام
الطبـــــــعة: الأولى/ القاهرة ٢٠١٠
عـــدد الصفحات: ٩٠ صفحة
المقـــــــاس: ١٤×٢٠
تدمـــــــــك:

١ - برامج الإذاعة

صرح للنشر والتوزيع

المدير العام: عبود مصطفى عبود

كورنيش المعادي، بجوار مستشفى السلام الدولي، أبراج المهندسين(أ) برج(٢)
الدور العاشر.

ت: (٢٥٢٤٠١٦٦)(٢+)

البريد الإليكتروني: darsarh@gmail.com
الموقع الإليكتروني: www.dar-sarh.com

رقـــم الإيداع: ٢٠١٠/١٤١٦٤
الترقيم الدولي: 978 -977-6382-22-0

ديوي ٣٨٤,٥٤٤٣

تاريخ ما أهمله التاريخ

يرويه

فــؤاد زكــريــا

مــع

عمــر بطيشــة





الدكتور / فؤاد زكريا

التاريخ المصري مليء بالأسرار والخبايا، التي لم يكشف عنها أحدٌ حتى الآن؛ ولهذا أسباب كثيرة، ربما يكون منها عدم الإفراج عن الوثائق التي تشهد على الأحداث وضياعها بعد ذلك، على عكس ما يحدث في دول الغرب، حيث تسمح القوانين فيها بالاطلاع على الوثائق بعد مُضيّ فترة من الزمن.

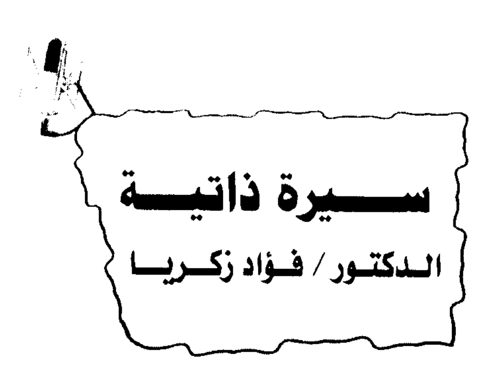
لذا كانت شهادات الشخصيات الكبيرة حول الأحداث التي عاصروها وشكّلوا جزءًا مهمًا من ملامحها مصدرًا مهمًا من مصادر معرفتنا بالتاريخ.

حقًا، قد يشوب الشهادة بعض التحيّز أو عدم الدقّة، لكنها تبقى في النهاية مصدرًا لا نستطيع تجاهله أو عدم الاعتداد به، خاصة إذا قارنّاها بشهادات الآخرين، فربما نخرج منها بحقيقة أو درس مهنيّ أو موقف إنسانيّ يساعدنا على تكوين رؤية واضحة لمشهدٍ ما في حياتنا أو تاريخنا، من هنا كانت أهميه هذه السلسلة التي تحمل عنوانًا دالًّا على مضمونها وهو «تاريخ ما أهمله

أحداثًا كانت نقاطا فارقة ومنعطفات تاريخية مهمة، لذا.. من المهم أن نتعرف على ما عندهم ولم تذكره الكتب، لكنهم أفاضوه وقصوه مع الإذاعي الكبير عمر بطيشة في برنامجه الشهير «شاهد على العصر». والذي يسعدنا أن تكون مادته بين يديك عزيزي القارئ من خلال هذه السلسلة، بذلك نكون قد ساهمنا بدورنا في توثيق هذه الشهادات حتى يستطيع القارئ والباحث الرجوع إليها وقتما يريد.

وهذه الشهادة – تحديدا – ترصد رؤية خاصة للأحداث من عين فيلسوف ومفكر وكاتب كبير، هو الدكتور فؤاد زكريا، شهادة تنزل بالفلسفة من برجها العادي إلى رجل الشارع، وترى حاجة الشارع إلى هذه الفلسفة، فعندما يعيش الفيلسوف الأحداث اليومية لرجل الشارع فإن شهادته تكون عميقة وذات أبعاد ودلالات مهمة.

الناشر


سيرة ذاتية
الدكتور / فؤاد زكريا

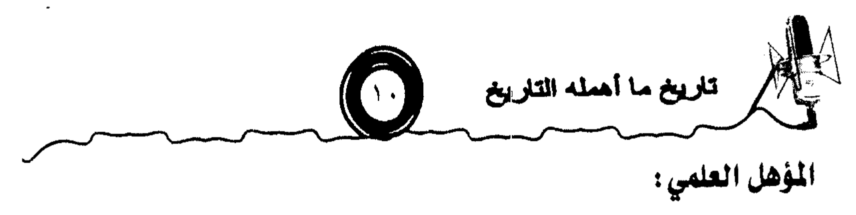
حياتــه

- **فؤاد زكريا**: (ولد ببورسعيد في ديسمبر ١٩٢٧ - وتوفي ١١ مارس ٢٠١٠) أكاديمي وأستاذ جامعي مصري.

متخصص في فلسفة المعرفة.

يُعد د. فؤاد زكريا واحدًا من أبرز المفكرين والفلاسفة في العالم العربي، وقد خاض مجالات كثيرة، كانت وما زالت أفكاره وآراؤه بمثابة الكشّاف الذي يُضيء الطريق للكثير.

من عباراته الشهيرة: «إن الغزو الثقافي الغربي خرافة لا وجود لها»، و«العلمانية هى الحل»، و«المعرفة العلمية من ضرورات الثقافة والحضارة لدى كل شعب»؛ عباراتٌ كثيرةٌ أطلقها الدكتور فؤاد زكريا الذى رحل عن عالمنا من فترة ليست بالبعيدة، كانت تشكّل منطلقه الفلسفي النقدي، الذي قدّم من خلاله العديد من الأعمال الفلسفية والفكرية المؤلفة والمترجمة بالإضافة إلى مقالات ودراسات في الصحف والمجلّات تتصل بمشكلات فكرية واجتماعية، فضلًا عن نقد السائد في الفكر العربي والواقع المصري.



المؤهل العلمي:

تخرج من قسم الفلسفة بكلية الآداب - جامعة القاهرة عام ١٩٤٩م. نال الماجستير عام ١٩٥٢ والدكتوراة عام ١٩٥٦ في الفلسفة من جامعة عين شمس.

المناصب التي تقلدها:

- عمل رئيسًا لقسم الفلسفة بجامعة عين شمس حتى ١٩٧٤.
- عمل أستاذًا للفلسفة ورئيسًا لقسمها في جامعة الكويت (١٩٧٤ - ١٩٩١).

ترأّس تحرير مجلتي «الفكر المعاصر» و«تراث الإنسانية» في مصر. عمل مستشارًا لشؤون الثقافة والعلوم الإنسانية في اللجنة الوطنية لليونسكو بالقاهرة. وتولى منصب مستشار تحرير سلسلة عالم المعرفة الكويتية. وكان أيضًا من مؤسسيها.

معاركـه :

خاض الراحل العديد من المعارك الفكرية دفاعًا عن العقل العربي، حتى إن البعض عدّه العدو الأول للتيارات الدينية المتعصبة. لكنّه كان يرى نفسه عدوًا لكثير من الجماعات والتيارات السياسية الموجودة على الساحة، الإسلاميون أولًا ومن بعدهم الناصريون وكذلك كثير من اليساريين والشيوعيين. لهذا السبب لم يجد على الأرجح أي جهة تدافع عنه أو تعمل على نشر أفكاره، وخصوصًا أنّه رفع دائمًا شعار «العلمانية هي الحل» مقابل شعار التيارات الدينية «الإسلام هو الحل».

خاض الراحل العديد من المعارك الفكرية، كانت أبرزها عقب نشره مقالته الشهيرة «معركتنا... والتفكير اللاعقلي» في تشرين الأول (أكتوبر) عام١٩٧٣، كتب: «إنّه من الظلم البيّن أن ننسب الانتصار العسكري الوحيد الذي أحرزناه في العصر الحديث على الأعداء إلى الملائكة، وننكر الجهد الشاقّ الذي بذلته القوّات المسلحة في التدريب والإعداد والاستعداد الشاق». تلى

هذا الكلام هجومٌ شديدٌ عليه في معظم وسائل الإعلام المصرية حينها، تلتها منابر المساجد. خاض زكريا معركة أخرى مع محمد حسنين هيكل بعد كتاب الأخير «خريف الغضب»، فأصدر كتابًا حمل عنوان «كم عمر الغضب»، يقوّم فيه الفترة الناصرية.

واذا كان فؤاد زكريا قد كتب باقتدار في الفلسفة و خاض بعض مشكلات الفكر والثقافة بأستاذية ، فانه في الوقت نفسه هو المجادل الذي لا يُشقّ له غبار في كتابيه «الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة» و «الصحوة الإسلامية في ميزان العقل» فقد نحت مصطلح «البترواسلام» وناقش أفكار الشيخ الشعراوي ومصطفى محمود، و فنّد آراءهما التي يراها لا علمية، ووضّح أنهما لا يمتلكان المعرفة بالاتجاهات التي ينقدانها.

وكذلك فند آراء حسن حنفي، التي كانت ترى أن موجة المستقبل في بلادنا هي ما يسمى بالأصولية الإسلامية، موضحًا تناقضات آراء «حنفي» وخطورة الانبهار بجماعة الجهاد التي اغتالت السادات. و فنّد أيضا تهافت بعض آراء المعارضين التي

رأت في الجهاد حليفًا نظرًا لعداء الجهاد للسادات. لقد كان فؤاد زكريا قارئًا جيّدًا للتاريخ، و لم يك مفكرًا يسكن فى برجه العاجي، بل يتضح من كتاباته أنه كان الأقدر علي الوصول إلي الحقيقة التي قد تختفي وراء ضباب اللحظات الانفعالية، و المواقف العاطفية. في ظل هذا الانبهار الجارف بالتيار الديني - الذي أدى ببعض الكتّاب إلي مراجعة أفكارهم والوقوع في أسر الأصولية.

أعمالـه :

قدّم فؤاد زكريا للمكتبة العربية العديد من الأعمال الفلسفية والفكرية المؤلفة والمترجمة بالإضافة إلى مقالات ودراسات في الصحف والمجلّات المختلفة. وهو في دراساته وكتاباته الفلسفية يقدم لغه فلسفية رصينة وقدرة فذة علي التحليل والنقد، وفهم دقيق للمصطلح الفلسفي.

مـؤلفاتـه :

- نيتشه، ١٩٥٦
- نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان،١٩٦٢
- اسبينوزا
- «الإنسان والحضارة»
- آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة، ١٩٧٥
- التفكير العلمي، ١٩٧٨
- خطاب إلى العقل العربي، ١٩٧٨
- الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة، ١٩٨٦
- الصحوة الإسلامية في ميزان العقل، ١٩٨٧
- آفاق الفلسفة ، ١٩٨٨
- الثقافة العربية وأزمة الخليج، ١٩٩١

كتب ترجمهـا :

اذا كان فؤاد زكريا في مؤلفاته يُمثّل علامة فارقة في تاريخ الفكر العربي، فإنه في اختياره للكتب المترجمة يُعدّ بحق أستاذ

الأساتذة؛ فهو حين يترجم.. يختار أمهات الكتب: الجمهورية لأفلاطون، والنقد الفني لـ«جيروم ستولينتيز» والفيلسوف وفن الموسيقى لـ«بروتنوي» وهذه الأعمال وغيرها مما قام بترجمته تمثل علامات بارزة في تاريخ الترجمة في القرن العشرين.

ومن أهم أعماله المترجمة:

- ب. موي :المنطق وفلسفة العلوم (جزءان)، ١٩٦٢.
- ر. متس :الفلسفة الإنجليزية في مائة عام، ١٩٦٣
- هـ. رايشنباخ :نشأة الفلسفة العلمية.
- هـ. ماركيز :العقل والثورة ، ١٩٧٠
- أرنولد هاوزر: الفن والمجتمع عبر التاريخ (جزءان)، ١٩٧٣.
- برتراند رسل : حكمة الغرب، سلسلة عالم المعرفة.

تكريمه:

نال زكريا جائزة الدولة التقديرية، وجائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي عام ١٩٨٢ عن أحسن كتاب مترجم «حكمة

الغرب» تأليف برتراند رسل[١] (جزءان)، وجائزة جان ماس التى تمنحها الرابطة الفرنسية للتعليم والتربية.

---

[١] **برتراند أرثر وليام راسل:** (١٨ مايو ١٨٧٢ - ٢ فبراير ١٩٧٠) فيلسوف ورياضي وكاتب إنجليزي يعد من أعظم الفلاسفة حصل على جائزة نوبل عام ١٩٥٠ بالإضافة إلى نوط الاستحقاق ذي القيمة الكبيرة والذي قلده إياه الملك جورج السادس عام ١٩٤٩ وجائزة سوننج من جامعة كوبنهاجن عام ١٩٦٠. كما كان ناشطا بارزا ضد الحرب وضد الإمبريالية كما شجع التجارة الحرة بين الشعوب. يعدّ من أشهر فلاسفة القرن العشرين، كما وُصف بأنه أهم علماء المنطق الذين ظهروا منذ عصر الفيلسوف الإغريقي أرسطو.


مقدمة الحـــوار

يدعو إلى المصالحة مع العصر، وإعادة التوافق مع الطبيعة، يرى د. فؤاد زكريا في شهادته الثرية أن الإنسان سيطر على الطبيعة، بمعنى أنه سيطر على المسافات سيطرة كاملة واختصرها اختصارًا هائلًا وأصبحت الأقمار المأهولة بالبشر تدور الآن حول العالم في أكثر قليلًا من ساعة... سيطر على الزمن أيضًا، قلّص الزمن واختصره، سيطر على الموارد الطبيعة، وعلى القوى الطبيعية. ويرى أن الذي يميز عصرنا الحاضر هو وعي الإنسان بالتجاوزات الهائلة التي حدثت في عملية السيطرة على الطبيعة خلال القرون السابقة، ومحاولته لأن يحُد من أضرار هذا الاختلال في التوازن، محاولته لأن يستعيد مرة أخرى علاقته الصحيّة مع الطبيعة. ويحذر د. فؤاد زكريا من العبث بالطبيعة فقد يجر ذلك كوارث لا حصر لها.

ويتطرق في هذه الشهادة إلى الحديث عن الهندسة الوراثية وما قد يترتب من أخطار هائلة نتيجة العبث الجيني.

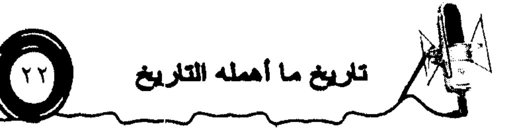
كما أنه يستمر في دعوته للتصالح لتشمل المصالحة بين المذاهب والتيارات الفكرية المختلفة، والأحزاب، ويرى أن الصراع الأيديولوجي الحاد بدأت تتغير ملامحه. ويذهب د. فؤاد زكريا في تحليل ظاهرة التطرف الديني وكيفية القضاء عليها. مؤكدا أن الذي يقف في مكانه هو في حقيقة الأمر يعود إلى الخلف، لأن الزمن لا يتوقف، يسرع إلى الأمام دائما، فيتخلف من ينتظر.

ويرى الشاهد أن رجل الشارع المصري يحتاج إلى الفلسفة إلى أقصى حد، على عكس ما يخطر ببال الناس أن الفيلسوف يغلق على نفسه أبوابه ويُفكِّر بين جدران أربعة ولا علاقة له بالأحداث التي تقع حوله في العالم. فهو يرى أن الفلسفة في الشارع.

كما يتحدث الشاهد في حواره مع الإذاعي؛ عمر بطيشة عن أمور كثيرة منها؛ أدب الحوار، والموسيقى، وعلى الرغم من أنه يجد في الموسيقى راحته وصفاء ذهنه، فإنه يرفض أن تكون أقراصا مهدئة، بل يراها غاية لا وسيلة. غير أنه يرى أن الغناء الحديث لا يُطوِّر في الموسيقى العربية.

الأهم في تلك الشهادة أنه يوافق الزعيم الفلسطيني؛ ياسر عرفات في وصفه لذلك الزمن بالرديء، ويرى أن العرب تفوتهم فرص كثيرة كانوا يستطيعون فيها أن يجعلوا لأنفسهم مكانًا في هذا العالم الذي نعيش فيه، لكن الفرص تضيع بسرعة وصورة المستقبل بالفعل تبدو قاتمة إلى حدٍّ كبير؛ على سبيل المثال: كنا نستطيع أن ننال مكانتنا من خلال الثروة البترولية أو من خلال الموقع الاستراتيجي أو من خلال الاستغلال الذكي للتنافس بين المعسكرات الإيديولوجية المختلفة، لكن كل هذه الفرص تضيع وتتبدد.

كما يدعو د. فؤاد زكريا إلى عدم القسوة على مثقفينا، فهم كغيرهم تأثروا بهذا العصر، وأن هناك نوعا من الفجوة الاتصالية بين المثقف وبين الجمهور، هذا بطبيعة الحال يؤدي إلى قدر من العُزلة لدى المثقف، هذه العزلة ناتجة من عدم التجاوب الجماهيري وانعدام رد الفعل.



وفي حديثه عن ظاهرة التناقض في هذا العصر يرد ذلك إلى الجشع والمصالح الخاصة، ويرى أن كل هذا التقدم التكنولوجي الذي أدى إلى تكوين القرية الإلكترونية الواحدة ما زال يُستغل من أجل خدمة مصالح الجشعيّن والطامعين، ولم يستغل بعد من أجل خدمة البشرية.

شهادة فيها الكثير والكثير من كاتب ومفكر كبير، يرصد فيها الظواهر ويحلل أدق تفاصيلها بعلم غزير ومعرفة وفيرة.


نص الحوار

المذيع:

يُثير العصر الذي نعيش فيه حَيرةَ الفلاسفة والمفكرين والعلماء، فلم يجمع عصرٌ من العصور مثل هذا الكم من المتناقضات مثلما يجمع عصرنا، ولعل السبب في هذه الظاهرة هو تلك القفزة التكنولوجية الهائلة التي خطت الدول المتقدمة خطوة عملاقة، بينما وقفت بقية الدول في مكانها فاتسع الفارق وعمقت الهوة مما أسفر عن العديد من المفارقات والمتناقضات في عالم واحد أصبح كالقرية بسبب ثورة الاتصالات .. لن نسبق شاهدنا على العصر في هذه الحلقة في رصد ظواهر العصر، بل نترك له المجال وهو خير من يحدثنا فيه؛ فهو مفكرٌ وكاتبٌ كبيرٌ وأستاذٌ خرَّج أجيالًا سواء من قسم الفلسفة في جامعة عين شمس أو جامعة الكويت، حيث يعمل الآن، له نشاط ثقافي مميز حيث نشر العديد من المؤلفات ورأس تحرير العديد من المجلات الثقافية، كما يشرف الآن على إصدار العديد من السلاسل الثقافية في الكويت .. لنا معه حوارٌ◆ ممتد في شهادةٍ جامعةٍ على عصرنا..

◆ أجري هذا الحوار عام ١٩٨٧.

المفكر الكبير الأستاذ الدكتور «فؤاد زكريا» مرحبا بك.

فؤاد زكريا: أهلا بك.

هذه المقدمة القصيرة بالتأكيد تنقصها معلومات كثيرة. هل تودّ أن تضيفها قبل أن نبدأ هذه الشهادة؟

في الحقيقة، المقدمة التي قلتها فيها كل الأشياء التي أعتزّ بها وأهتم، قد تكون هناك بعض الفرعيات، بعض المسائل التفصيلية، لكن أحب أن أقول: إنه من الممكن اختصار هذا كله في كلمة واحدة وهي «أنني معلم»، بكل بساطة، في بعض الأحيان أشعر أنني وُلدتُ لكي أكون معلمًا، وقد يكون هدفي الأساسي حتى عندما أتخذ صفة الكاتب الذي يكتب مثلًا في مجلة أو صحيفة أو غير ذلك، في هذه الحالة أضع نفسي موضع المعلم وأكتب بالطريقة التعليمية التي أستطيع أن أكون واثقًا من أنها ستصل إلى عقل القارئ وستقدم إليه درسًا يصعُب أن يخرج من ذهنه.

فالتعليم هو في الأصل عملية صوت وكلام واستماع، وكنت قد بدأت بالشيء البعيد وهو أنه في الكتابة نفسها أتخذ صفة المعلم وأرجو أن نستفيد جميعًا من الدرس.

الإنسان والطبيعة

نرجو هذا، ونتوقع شهادة ثرية - إن شاء الله - من الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا وتقديم رؤية تنتظم من أبرز ملامح وظواهر العصر سياسية وثقافية واجتماعية، فما هي تفاصيل رؤية الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا لعصرنا؟..

ما دام السؤال بهذا القدر من الاتساع فلا بد لي أن أتحدث عن أوسع، وأبرز الملامح التي لا تميز مجتمع بعينه أو بيئة جغرافية بعينها، وإنما يمكن أن تكون صفة شاملة لعصرنا هذا.. في اعتقادي إذا أردت أن أرصد السمة البارزة جدًّا، المميزة لهذا العصر هي محاولة لإعادة التوافق مع الطبيعة، بمعنى: أن العصر الحيز في البلاد المتقدمة كان عصر السيطرة على الطبيعة، وكان شعار هذا العصر

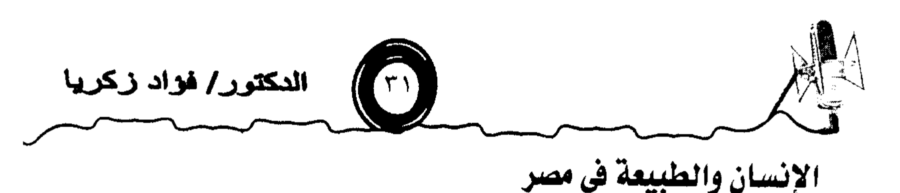
هو كلمة الفيلسوف الكبير الإنجليزي فرانسيس بيكون[٢] القائلة: «إنك لا تستطيع أن تسيطر على الطبيعة إلا بفهمها»، لابد أن تفهم الطبيعة أولًا من خلال العلم ثم تسيطر عليها من خلال التكنولوجيا .. كانت فكرة السيطرة على الطبيعة هي السائدة، وفي ضوء فكرة السيطرة على الطبيعة حصلت هذه المجموعة الهائلة من الاكتشافات العلمية والتكنولوجية، سيطر الإنسان على الطبيعة، بمعنى أنه سيطر على المسافات سيطرة كاملة واختصرها اختصارًا هائلًا وأصبحت الأقمار المأهولة بالبشر تدور الآن حول العالم في أكثر قليلًا من ساعة... سيطر على الزمن أيضًا، قلّصنا الزمن واختصرناه، سيطر على الموارد الطبيعة، وعلى القوى الطبيعية، وأصبح في أيدينا الآن مثلًا: «ترانزستور» صغير يوضع في الجيب وتسمع به الأصوات من مختلف أرجاء العالم ، لو أن إنسانًا كان

---

[٢] فرانسيس بيكون (بالإنجليزية: Francis Bacon) (٢٢ يناير ١٥٦١ - ٩ أبريل ١٦٢٦) فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنجليزي، معروف بقيادته للثورة العلمية عن طريق فلسفته الجديدة القائمة على «الملاحظة والتجريب». من الرواد الذين انتبهوا إلى غياب جدوى المنطق الأرسطي الذي يعتمد على القياس.

يعيش من مائتي سنة مثلا فأتى ورآه الآن لاعتقد أنه سحر، أعجب من أي سحر كان يخطر بباله في ذلك الحين، كل هذا كان نتيجة للسيطرة على الطبيعة.. لكن يبدو أن فكرة السيطرة على الطبيعة أُثيرت إلى مدى أوسع مما يجب، وبدأ رد الفعل يحدث في الآونة الأخيرة، بدأ الإنسان يدرك أنه في محاولاته للسيطرة على الطبيعة يسيء إلى نفسه و إلى الطبيعة، ويفسد العلاقة بينهما، ويفسد التوازن الذي يمكن أن يكون، بمعنى: أن كل المشكلات مثلًا التي نسمع عنها المتعلقة بالبيئة الآن هي مشكلات ناتجة عن محاولة الإنسان السيطرة على الطبيعة، فعندما يعبث بالموارد كما يشاء؛ ويرمي النفايات والتالف وكذا وكذا فإنه يفسد البيئة الطبيعية، ويُخل بالتوزان القائم بين الإنسان والطبيعة، ويعيش الإنسان في بيئة صناعية فيها الكثير من الأخطار والأضرار، نقول مثلًا: عملية الإفراط في التسلّح وفي اختراع أسلحة الدمار الشامل مظهر من مظاهر السيطرة المفرطة على الطبيعة، وصلنا لقوة أو طاقة مثل الطاقة النووية والذرية، ولكننا بسرعة أسأنا استغلالها، ووصل

إساءة استغلالنا لها إلى حد أن الدول الكبرى تحتفظ بمخزون لو أُستخدم فهو كفيل لأن ينسف الكرة الأرضية بمن عليها نسفًا كاملًا، فإذن، أقول: إن الزمام قد أفلت من الأيدي في عملية السيطرة على الطبيعة في هذه الحالة، فالذي يميز عصرنا الحاضر هو وعي الإنسان بالتجاوزات الهائلة التي حدثت في عملية السيطرة على الطبيعة خلال القرون السابقة، ومحاولته لأن يحُد من أضرار هذا الاختلال في التوازن، محاولته لأن يستعيد مرة أخرى علاقته الصحيّة مع الطبيعة.. لا أقول: إن الإنسان سيعود في هذه الحالة إلى عهد الرعي أو الزراعة ويرجع إلى العصر الذي كانت تحتضنه فيه الجبال والخضرة والغابات إلى آخره، لا... فهذا مستحيل، ففي الوقت الذي أحرز فيه الإنسان تقدمًا معينًا يكون من المستحيل أن يرجع إلى الوراء مرة ثانية، لكن المسألة هي أن الإنسان يحاول أن يستعيد التوزان، فمثلًا؛ هناك الآن دعوات واضحة وقوية، تزداد قوة يومًا بعد يوم إلى العودة إلى ردِّ اعتبار اللون الأخضر مرة أخرى.



الإنسان والطبيعة في مصر

قد تكون تلك الظاهرة أو الدعوة واضحة جدًا في مصر الآن..

أنت تراها في مصر – حقًا – لأننا استأصلنا اللون الأخضر أولًا بأوّل، كلّما نواجه أزمة في بناءٍ معينٍ أو في مجموعة مساكنَ معينة فإن أول ما نفكر فيه هو أن نستولي على المساحة الخضراء في قلب المدينة وفي أطرافها ونحوّلها إلى أرضٍ للبناء لنحلّ أزمة مؤقتة، لكننا نخلقُ أزمةً أشدّ وأعنف، طويلة المدى بالطبع، هذه الدعوة أوسع انتشارًا بكثير في البلاد الأخرى الأكثر تقدّمًا، هذا مجرد مثل واحد، لكن هناك أمثلة عديدة جدًا للأضرار التي تُلحقها الصناعة مثلًا بالبيئة الطبيعية للإنسان، بالكائن البشري بنفسه على صورة تُعرِّض لأمراض متعددة مثل السرطان وغيره.. تشوّهات في الأجيال الجديدة في الجنين الذي يمكن أن يصاب بأضرار وخيمة دون أن يشعر الأب أو تشعر الأم بذلك مقدمًا، كل هذا يشكل أخطارًا أساسيّة ناتجة عن أخذنا موقف «السيّد» تجاه

الطبيعة، أما الآن فالدعوة بألا يكون الإنسان والطبيعة أحدهما سيّدًا والآخر عبدًا، إنما تكون الصداقة بين الاثنين؛ ليَحدُثَ نوعٌ من التواؤم أو التلاؤم أو عودة الانسجام بين الاثنين.

أو الاعتراف المتبادل.

أو الاعتراف المتبادل – بالتأكيد – فتلك عملية صعبة جدًّا في ضوء ما قلت لن تتنازل عن التقدم الصناعي والتكنولوجي الذي حدث، وتبقى المسألة في صعوبة مضاعفة بين كيف تستطيع أن تلائم بين حياة كيّفتْ نفسها على أساس وجود تكنولوجيا رفيعة وعلم متقدم يزداد تقدمًا كل يوم وبين ردّ اعتبار العلاقة السليمة والصّحّيّة بين الإنسان وبين البيئة التي يعيش فيها؟

باستخدام مصطلحات الطب، نستطيع أن نقول: إن إنسان العصر يعاني من الآثار الجانبية للتكنولوجيا والتقدّم العلمي؟

صحيح.. لكن كل ما في الأمر أن الآثار قد تكون أقوى بعض الشيء من كلمة الجانبية.. كما تعرف عندما يتحدثون عن الآثار الجانبية في الأدوية يتحدثون عن أشياء تلحق بنسبة بسيطة

مَن يتعاطون هذا الدواء، لكن ما حدث الآن أن الخطر صار واضحًا وفي مسألة أوسع من ذلك، يومًا ما ستُهَدِّدُ الجميع ما لم نتدارك الموقف ونعمل على إقامة العلاقة بيننا وبين الطبيعة على أساس أفضل.

التلوث وحدوث الخلل

أتصور أيضًا من وجهة نظر واقعية بحتة أن إنسان العصر لن يحس بخطورة هذه المسألة إلا حينما تمسّه شخصيًا، إذن، مجرد الإحساس العام أصبح مُفتقَدًا في هذا العصر، ولم يعد الإنسان يحس بخطرٍ ما إلا إذا كان هذا الخطر سيلحقه شخصيًا، لن يحسّ بمشكلة التلوث الخطيرة الموجودة في العالم إلا لو لحقه ضرر منها.

أنا معك تمامًا في هذا، لكن المسألة بدأت فعلًا في الظهور وهناك بوادر خطيرة، لكن من حسن الحظ أن كثيرًا من المفكرين في البلاد المتقدمة يتنبهون إلى الأخطار، عندما تحدث بوادرها الأولى لا ينتظرون إلى أن يصبح الخطر شاملًا، هناك وعي؛ وعي عند البعض على الأقل، فمثلًا كلنا نذكر الحادثة الشنيعة التي

حدثت لمصنع «يونينكربايت» في الهند؛ الذي تسربت منه غازات قضت على آلاف من سكان قرية بأكملها، وكان هذا ناتجًا أيضًا عن كل العوامل التي تكملت عنها، شركة تبحث عن الربح من أجل الربح فتقيم مصنعًا لها في بلد فقير على أساس أن الأيدي العاملة هناك رخيصة، ولكي توفر نفقتها فماذا تفعل؟ تقلل من الأجهزة والاحتياطات المطلوبة أمنيًّا وصحّيًّا وعلميًّا فتكون النتيجة أن الغاز عندما يتسرب لا يجد خطوط دفاع كافية، أنت لا تتصور ردّ الفعل الهائل الذي أحدثته هذه الحادثة على مستوى العالم المتقدم وعلى مستوى العالم الثالث أيضًا.. حدث رد الفعل هذا في تدرّجات وتموّجات لم تشمل فقط النواحي العلمية والتكنولوجية، بل امتدت إلى السياسة والاقتصاد وفي المجتمع وفي علاقة العالم المتقدم بالعالم المتخلف إلى آخره. مثلًا كلنا يعرف ما حدث في قلب أمريكا نفسها الحادثة المشهورة التي كانت في منطقة تدعى «ثري مايلزآيلند»، ترجَمَتُها جزيرة الثلاثة أميال، كان يوجد في المنطقة مفاعلٌ نوويٌّ كبير وكانت الشركة التي أنشأته تؤكد للجميع أنه

مضمون مائة في المائة، وليس هناك أي خطر من أي تسرب في هذا المفاعل.. ثم تسرّبت الإشعاعات وكانت النتيجة أن سكان المنطقة المحيطة تأثروا بهذا ومات منهم عدد غير قليل وحدثت ضجّة هائلة في المجتمع الأمريكي.. حدوث هذا الحادث جرّ وراءه سلسلةً كبيرةً جدًّا من الأفكار المُتعلِّقة بأمور أشمل وأوسع بكثيرٍ من تلك الواقعة البسيطة.

إذن، عملية المصالحة مع الطبيعة كيف تتم الآن؟ وما هو المتوقّع لها في ظل هذا الوعي الذي بدأ ينتشر لدى الفلاسفة والمفكرين؛ مفكري العصر؟

يبدو في الظاهر أن هذه العملية هي عملية علمية وتكنولوجية فقط؛ فهي مثلًا إعادة تشكيل لنوع العلم ونوع التكنولوجيا الذي نعمل به، بحيث لا يكون مؤدّيًا إلى هذا القدر من التدمير والتخريب للبيئة التي يعيش فيها الإنسان، هذا هو الوجه الظاهري، لكن في الحقيقة هذا الوجه الظاهري يجرّ وراءه نتائج متعددة وفي ميادين أخرى هامّة جدًا، فهو مثلًا يجر وراءه

إعادة تشكيل جديد للعلاقات الاجتماعية الموجودة في هذا العالم، فمثلًا كيف حدثت مسألة الإفراط في السيطرة على الطبيعة إلى حد العدوان عليها.. حدث هذا نتيجة للتمسُّك الشديد بفكرة الرِّبح من أجل الربح، الربح على طول الخط، وحدث هذا في المجتمعات الصناعية المتقدمة، إذا أردنا الآن أن نستعيد التوازن مرة أخرى فلا بد أن يترتب على ذلك نتائج اقتصادية واجتماعية في علاقات البشر بعضهم ببعض، بحيث نقول: لا، الربح ليس كل شيء، لا بد مع سعينا إلى قدر من الربح أن نسعى أيضًا إلى تواؤم الإنسان مع الطبيعة.أو أن يعيش الإنسان في عالم يستطيع أن يحقق فيه إمكانياته، فلا بد في هذه الحالة أن يتراجع دافع الربح الذي كان المُحرّك الأساسي للإنسان طوال القرون الماضية، لكي يحدث هذا التراجع لا بد من تغييرات شاملة وهائلة على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي، لا بد من حركات اجتماعية ضخمة في هذا العالم ولهذا أقول: إن العنصر الذي أتكلّم عنه ليس عنصرًا رومانتيكيًا وليس عنصرًا مثاليًا، وإنما هو جزءٌ لا يتجزّأ من حركةٍ

شاملة يحاول فيها الإنسان أن يحرر نفسه من مرحلة الجشع والطمع الزائد الذي كان يمر بها طوال الثلاث أو الأربع قرون الأخيرة خصوصًا في البلاد المُتقدِّمة ومع توازنه مع الطبيعة يحدث توازن بين الإنسان والإنسان أيضًا؛ بين الشعوب المتقدمة والشعوب المتخلِّفة أيضًا، عملية الاستغلال الجشع.. عملية الاستعمار... إلخ، كل هذا لا بد من إعادة النظر فيه في ضوء الهدف الشامل الذي أتكلّم عليه في البداية.

إلى جانب عملية المصالحة مع الطبيعة التي تميّز عصرنا فما هي بقية الظواهر أو الملامح والتيارات الأساسية التي تُشكِّل وجه العصر الذي نعيش فيه؟

أيضًا، اسمح لي أن أتكلم في هذه الأمور.. من زاوية فلسفية قليلًا؛ لأن الزوايا الأخرى من الممكن أن تكون عولجت من قبل وبما أن تلك هي مهمتي الأصلية فقد يكون من المفيد أن يضيف الفرد بعض الأبعاد التي لا تُذكر عادة في مثل هذه الأمور، مثلًا من الظواهر المميزة لعصرنا؛ رفض فكرة وجود طبيعة ثابتة

لأي شيء.. إنه ما يسمى باسم الطبيعة النهائية والثابتة والشكل الثابت للشيء.. هذا مرفوض، إن الإنسان قادر على أن يغير هذه الطبيعة ويُشكِّلها بالطريقة التي تُحققُ له مزيدًا من الفائدة، على سبيل المثال؛ بدأ العلم الآن يدخل في عملية التحكم.. في تركيب الخلية الوراثية البشرية، وهذا فرع قد يعتبره الناس منسيًّا، أو تقرأ عنه خبرًا في الجريدة اليومية مرّةً كل شهر مثلًا أو كل شهرين، ولكن الذين يرصدون الأمور بشيء من سعة الأُفق يقولون: إن القرن القادم سيكون أهم ما يميزه هو عملية التحكم في الطبيعة البشرية، بدلًا من أن تبقى هذه الطبيعة البشرية كما هي ونسلّم بأن لها الشكل الذي ألفناه وعشنا عليه آلاف السنين، لا، نحن نستطيع أن نتدخل فيه.

الهندسة الوراثية.

● الهندسة الوراثية.. والتحكم في قدرات المخ البشري، المسألة تسير في الجانبين؛ جانب السيطرة على مخّ الإنسان وفهمه فهمًا جيّدًا من ناحية وجانب السيطرة على الخلية الوراثية من ناحية

أخرى، والاثنان متكاملان، فالعلماء الآن في أول الطريق.. الخطوة الأولى ولا تزال أمامهم أسرار هائلة، لكن ما حدث في هذه الخطوة الأولى يكفي لأن ينبّهنا إلى دخولنا عصرا قد يؤدي إلى نتائج مخالفة تمامًا لكل ما ألفناه ونعيش عليه حتى الآن، فهل يستطيع العلماء مثلا إذا أرادوا أن يصنعوا إنسانا أكثر عبقرية من أينشتين ببعض التدخلات في الهندسة الوراثية لرجل متفوق في الرياضيات؟

ومحسوبة.

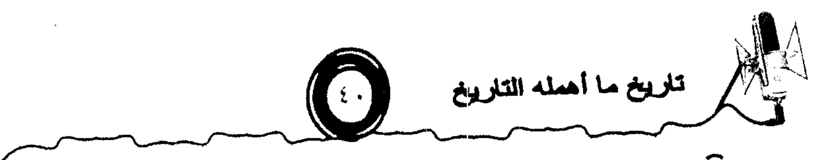
محسوبة.. فتستطيع أن تتخيّل الإمكانات الهائلة التي من الممكن أن تترتب على هذا الاتجاه، الذي بدأنا نسير فيه خطواته الأولى..

نعم..

والأخطار هائلة، وهناك أخطار مرعبة..

يكفي أن محاولة السيطرة على الطبيعة أسفرت عن هذه الآثار السلبية الرهيبة.

إذن، فما بالك في السيطرة على الإنسان



يكرر إنسان العصر الأخطاء نفسها التي وقع فيها أسلافه من قبل.

ولكن على مستوى أعقد بكثير وأعلى بكثير، أذكر مثلًا عندما كنا صغارًا، كانت توجد سلسلة أفلام نشاهدها برعبٍ شديد؛ هي سلسلة «فرانكنشتاين»[٣]

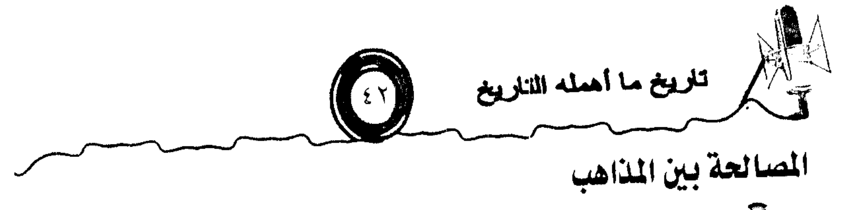
نعم..

«فرانكنشتاين» هذا، كان أيضًا حصيلة تجارب علمية يقوم بها عالِمٌ في معمله على إنسان كان ميِّتًا، ثم إن العالِمَ - بشكلٍ أو بآخر

---

[٣] **فرانكنشتاين** رواية في الخيال العلمي ظهرت في نسخ وأفلام عديدة. وتدور قصتها حول دكتور جراح يدعى «فرانكنشتاين» يبحث عن سر الحياة. وقد توصل إلى قناعة بأن الكهرباء هي جوهر الحياة، وأنها ما يشكل الفرق بين الجسد الحي والميت. ولكي يثبت وجهة نظره يعمد إلى سرقة الجثث وانتزاع الأعضاء المتفوقة منها ثم يعيد لحمها لتركيب «الرجل الخارق». وحين احتاج إلى «دماغ» بشري يقوم بسرقته - مع مساعده فرتز - من إحدى كليات الطب. غير أنهما يسرقان بطريق الخطأ دماغ مجرم معتوه توفي للتو. وبعد أن يزرعا الدماغ في الجمجمة يبنيان فوق المعمل برجاً معدنياً لالتقاط إحدى الصواعق الكهربائية. ويمدان من هذا البرج أسلاكاً تتصل بأعضاء المسخ، ويبقيان في انتظار العاصفة الرعدية المناسبة.. وفي اللحظة الحاسمة تضرب صاعقة هائلة قمة البرج فتنتقل ملايين الفولتات الكهربائية إلى الجثة فتحركها بعنف فتدب فيها الحياة ويستيقظ المسخ المجنون.

- أعاد إليه الحياة، بالطبع خيالٌ علميٌّ، وعندما أُعيدت إليه الحياة نتيجة التدخّلات العلمية خرج هذا الكائن مفترسًا ووحشيًا وقاسيًا إلى أبعد حدّ، ويدور الفيلم كله على الفظائع ومظاهر الرعب التي يرتكبها «فرانكنشتاين».. هكذا كانت الفكرة في هذا الفيلم؛ أن الإنسان يخلق قوًى معينة، ثم لا يستطيع أن يسيطر عليها فيما بعد، فأتصور أن قصّة فرانكنشتاين ستتحقق بشكل علمي وأدقّ وأخطر بكثير لأنني أتصوّر مثلًا لو أن شركة من الشركات القويّة جدًّا التي تمتلك معامل هائلة وعملت في هذا الميدان، وبعد التوصل للنتائج التي كنا نتحدث عنها فاستغلت هذه النتائج مثلًا من أجل مصلحتها الخاصة أو من أجل القضاء على المنافسين أو على النظام الاجتماعي المضاد لها إلى آخره.. تستطيع أن تتصور الأخطار التي تتولد عن وجود قوة كهذه في أيدٍ غير مسؤولة أو في أيدٍ ليس لها دوافع إنسانية.



المصالحة بين المذاهب

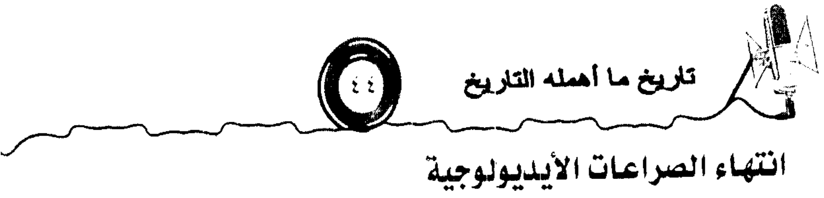
هل ترى أن هذا العصر أيضًا هو عصر المذاهب أو الانتماء إلى المذاهب يمينًا أو يسارًا، أمامًا أو خلفًا، بمعنى آخر هل أصبح قدر الإنسان الآن أن يدخل تحت أحد التصنيفات أو التقسيمات أو القولبات وإلا سقط من حساب التاريخ؟

أنا أتصور أن هذه السمة ليس لعصرنا الحاضر بالضبط وإنما هي سمة عشرات السنوات القليلة التي تسبق مرحلتنا الحالية، إنما في تصوّري أنا الخاص أنّ المرحلة الحالية – على عكس المتصور – هي مرحلة تكسير المذاهب أو هدم الحواجز التي توجد بينها، بمعنى: أننا مثلًا منذ أوائل القرن العشرين إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية كانت لدينا فكرة الانتماء المذهبي واضحة وحادة..

نعم، هذا الذي أقصده، فهذا العصر من أول القرن الذي نعيشه.

صحيح.. إذا كنّا نتكلم عن الشواهد أو البوادر الأخيرة التي يُقدَّر لها أن تتوسع وتنمو في المستقبل، فأنا أقول: إن الاتجاه

الآن إلى كسر الحواجز، وإلى عدم التقيّد بالقوالب التي حصرتنا فيها المذاهب.. كنت تجد مثلًا «الصراع الأيديولوجي» حادا جدًا وقاطعا وواضح المعالم تمامًا حتى فترة قريبة، لكن العلامات التي أراها في فترتنا الراهنة بالذات، هي أن الإنسان يحاول تخطّي هذه الحواجز لكي يدرك عدم وجود مذهب معين يستطيع أن ينتمي إليه ويكون خاليًا تمامًا من الشوائب أو من العيوب، فماذا يفعل؟ يستخدم حُرّيّته.. يستخدم تفكيره.. فيعدُل تمامًا عن هذا المذهب بحيث لا يكون متقولبًا في قالبه أو إطاره، أو أن يُطعّم المذهبَ بعناصر؛ قد تكون مستمدة من مذاهب أخرى مختلفة عنه أو مضادة له، وبالفعل، فالحركات الأكثر تقدُّميّةً واستنارةً في فترتنا الحالية هي من هذا النوع.



انتهاء الصراعات الأيديولوجية

لعلي أتصور أن تُشير مثلًا إلى ما حدث مؤخّرًا في التجربة الصينية وغيرها.

صحيح، التجربة الصينية.. مثلًا كسرت حواجز كثيرةً، خاصةً في الفترة الأخيرة. كثير من الأحزاب الماركسية الأوربية عندما تأتي فتستغني أو تتخلى عن مبدأ أساسي مثل مبدأ ديكتاتورية «البروليتاريا»[٤] مثلًا، وتعلن في برامجها بوضوح وصراحة أن

---

[٤] **البروليتاريا:** هو مصطلح ظهر في القرن التاسع عشر ضمن كتاب بيان الحزب الشيوعي لكارل ماركس وفريدريك أنجلز يشيران فيه إلى الطبقة التي ستتولد بعد تحول اقتصاد العالم من اقتصاد تنافسي إلى اقتصاد احتكاري، ويقصد ماركس بالبروليتاريا: الطبقة التي لا تملك أي وسائل إنتاج وتعيش من بيع مجهودها العضلي أو الفكري، ويرى ماركس أن الصراع التنافسي في ظل الرأسمالية، سيتولد عنه سقوط العديد من الشركات واندماج شركات أخرى، حيث إنها في النهاية تتحول إلى شركات «كوسموبوليتية» أي لاقومية و تصبح شركات احتكارية ويصبح نضال شعوب الأرض موحدًا لعدو واحد، وتسمى هذه الطبقة الناشئة عن الاحتكارات العالمية بطبقة البروليتاريا، وهي تبيع عملها الفكري والثقافي والعضلي ولا تملك أيّة وسائل إنتاج، ويعتبر ماركس البروليتاريا هي الطبقة التي ستحرر المجتمع وتبني الاشتراكية بشكل أممي.

العصر الحاضر لم يعد يحتّم على أن الماركسية تتم من خلال سيطرة البروليتاريا وديكتاتوريتها، لا بد أن تتم بشكل آخر.

له علاقة بالميكنة وعدم الاعتماد على العامل البشري والاعتماد على الآلة أكثر من الإنسان؟ يعني القوى العمالية أو قوى العمال في العالم؟

بلا شك أن شكل الثورة الصناعية الآن تغيّر كثيرًا عن الفترة الكلاسيكية التي كانت موجودة فيها الماركسية في القرن التاسع عشر، ومن الطبيعي أن هذا الشكل الجديد مُختلف تمامًا، يحتاج لقوالب وإلى مقولات ومفاهيم مختلفة تمامًا عن المفاهم التي فكّروا بها في القرن الماضي.. هذا تطور طبيعيّ وصحّيّ وسليمٌ ومطلوب، لكن أيضًا من الأسباب التي أدت إلى تلك الأفكار والإيديولوجيات السابقة؛ فكانت تمرّ بمرحلة تجريب، في مرحلة التجريب أحرزت نجاحًا في ميادين وأحرزت فشلًا في ميادين أخرى، والأيديولوجيات المضادة لها أيضًا تطوِّر من نفسها وتُغيِّر نفسها، وبالتالي في عملية التغيير لابد من أن تُغيّر الطرفين معًا

فتختلف الأفكار، فمثلًا العامل في البلاد الرأسمالية الأوربية هو الآن بعيد جدًّا عن صورة العامل الذي صوّره ماركس في القرن التاسع عشر؛ العامل الذي يُستغَل ويضطهد ويزداد فقرًا يومًا بعد يوم نتيجة لهذا الاستغلال والاضطهاد، في أوربا الغربية صورة العامل الآن مختلفة تمامًا، من أين أتت هذه الصورة؟ من مقاومة النظام الآخر (النظام الرأسمالي) للأفكار الماركسية خوفًا من أخطارها، بالطبع عندما يحدث هذا التعديل لا بد من أن تُعدّل النظرية الأخرى نفسها وفقًا للأوضاع الجديدة وهكذا.. لذلك أقول: إن عصرنا الآن هو عصر كسر تلك الحواجز الأيديولوجية وعدم التقيّد بالقوالب القديمة.

مصالحة أخرى أيضًا!

أو مخاصمة أعنف، فعندما تسمع أو تقرأ عن ثورات أمريكا اللاتينية وأمريكا الوسطى الآن، كثير من الناس يتّهمونهم فيقولون: هؤلاء ماركسيون.. هؤلاء شيوعيون، لكن ما أعلمه عن ما يجري في داخلهم هو أنهم كسروا هذه القوالب إلى حدٍّ كبير

وخرجوا عن تلك الإطارات، وأصبحوا يستهدفون استرداد كرامة الإنسان مرة أخرى ومن الممكن أن تسترد كرامة الإنسان هذه بصور أخرى متعددة جدًّا غير الصورة التقليدية التي تعوّدنا عليها في النصف الأول من هذا القرن.

هل في هذا الإطار نستطيع أن نعتبر أن ظاهرة التطرّف بهذا المعنى – الذي قلته – ظاهرة متخلّفة لا تتفق مع هذا المفهوم الجديد الذي فرض نفسه على عصرنا وهو مفهوم المصالحة؟

ظاهرة التطرف مشكلتها أنها خدّاعة؛ خدّاعة لفظيًا، ماذا يعني قولك على إنسان بأنه متطرّف في كذا ويكون أول معنى يتبادر إلى الأذهان؟! لنفترض أنه متطرّف في التدين فنقول: إن لديه التدين بأقصى درجاته أو بأعلى درجاته.. هذا هو المعنى الذي يتبادر إلى الذهن، لكن في الواقع ما أريد أن أقوله: هو أن التطرف يؤدي إلى عكس الهدف المطلوب منه، هو تطرف في اللفظ.. في الاسم، ولكن من ناحية الأمر الواقع نفسه لا يؤدي إلى تحقيق الهدف الذي يسعى من أجله، بل العكس من الممكن أن يضر هذا

الهدف إلى حد كبير، نحن نرى – مثلًا – متطرفين في التدين ونرى متطرفين في الأفكار التي نسمّيها الأفكار اليسارية أو المتشنجين اليساريين، هؤلاء المتشنجين لايقدرون على خدمة أهدافهم خدمة حقيقية، بل العكس؛ فهم في أغلب الأحيان يضرون هذه الأهداف ويساعدون على ضربها، وعلى القضاء عليها أوّلًا بأوّل، ولا يمكن للمتطرفين الدينين أن يخدموا قضية الدين؛ لأن الصورة التي يقدِّمونها إلى الناس عن الدين عادةً ما تكون منفرة إلى الحد الذي يسيء إلى قضية الدين، فكلمة التطرف - كما قلت - خدّاعة من هذه الزاوية، هو تطرف لفظي وشكلي، لكنه من حيث الأمر الواقع يُؤدي إلى عكس الهدف المقصود منه، فالحقيقة.. إذا تأمّلنا مثلًا مجتمعنا المصري على سبيل المثال سنجد أن التجارب في السنوات الأخيرة أثبتت أنه لا سبيل لنا إلى الخروج من المأزق الذي نقع فيه سوى أن نحدد لأنفسنا مجموعة من الأهداف، ما هي صورة الإنسان المصري كما نريده أن يكون؟ هذه أهداف أساسية وبالطبع عندما نحدد هذه الأهداف.. من الخطأ أن نكتفي بالحلم، وجود

قدر من الحلم لا بأس به، لكن أن تكون المسألة حلمًا من البداية إلى النهاية هذا خطأ.

لا بد أن نحدد لأنفسنا الأهداف في ضوء أن نقف الآن على أرضيّة مُعيّنة مواصفاتها كذا وكذا، لكن عندنا أيضًا شيء من الحلم.. شيء من الرغبة في أن نصنع إنسانًا أفضل، ففي ضوء هذه المعطيات الموجودة الآن كيف نستطيع أن نصنع هذا الإنسان الآخر، إذا حددنا هذه المواصفات، وهذه الأهداف بالصورة الواقعيّة التي لا تستبعد أحلامنا من أجل إنسان أفضل، نستطيع في هذه الحالة أن نرسم الخطوات المؤدية إلى ذلك، لا يهمني القالب، أنا – مثلا – أريد إنسانًا يكتسب تعليمًا مستنيرًا مسايرًا للعصر إلى حدٍّ معقول، وأن تُمحَى أمّيّته و.. و.. إلخ، في قطاع واحد وليكن قطاع التعليم ..

مهم جدًا أن يكون الإنسان على وعي بالعصر الذي يعيش فيه، بالبلد الذي يسكنه. وكل الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يحياها..

بالضبط، ولكن السؤال هو ما هي الوسائل التي توصّلنا إلى هذا؟

فأنا أتصوّر أنه قد تبين بالتجربة أن كثيرًا من القوالب التقليدية عجزت عن تحقيق مثل هذه الأهداف وفي رأيي أنه لا بد أن يكون لدينا من المرونة ما يجعلنا نركّز في تفكيرنا على الأهداف نفسها، وليس على النظريات، وليس على الكُتب، المهم أن ما يساعدني في الوصول إلى هذه الأهداف بشكلٍ متكامل وبشكل سليم لا بد أن أتبعه حتى ولو كان في ذلك كسرًا لبعض القواعد أو خروجًا على بعض النظريّات، أتصور أن سيرنا في هذا الطريق معناه أننا تخلينا عن مسألة التطرّف بكافة أشكالها سواء أكان تطرفًا نحو اليمين أو نحو اليسار..

نستخلص من كلامك أهمية أن تكون الرؤيا واضحة لما نريد أن نصل إليه.

تمامًا.

هل من الممكن أن يكون ذلك خطوة على الطريق من أجل إزالة الهوّة بين التخلّف وبين التقدّم، التي أشرنا إليها في البداية؟

نعم، وفي الواقع هذا موضوع يستحق منا أن نبدي له اهتمامًا خاصًا في هذه المرحلة من حديثنا؛ لأنه الفجوة التي تزداد اتساعًا بين العالم المتقدم وبين ما نسميه العالم الثالث أو النامي، وهو في الواقع وبصراحة عالم متخلف.. هذه الفجوة من الملاحظ أنها في معظم الأحوال لا تضيق وإنّما تزداد اتّساعًا.

يقولون: الذي يجلس في مكانه لا يظل في مكانه بل يعود إلى الخلف..

يرجع إلى الوراء عندما يكون ما حولك متحركًا ومتقدمًا. في الواقع، هذه مشكلة أصبحت تؤرق كل المهتمين

بشؤون العالم الثالث بوجه خاص، ونحن نرى في كل يوم أن التقدم يولّد التقدم، مثلما نقول في لغتنا العادية «إن الفلوس تجيب فلوس»، فوجود تقدّم مثلًا في دولة من الدول على شكل استخدام واسع النطاق مثلًا للكمبيوتر فهذا لا يساعد فقط في أهدافه المباشرة، وإنما يساعد في البحث العلمي، وفي مختلف أنواع الاختراع، وفي اختزان المعلومات ويساعد الأجيال الجديدة على أن توفر طاقتها الذهنية فتأتي بابتكارات أفضل، وهكذا لها تأثير تراكمي.. التقدم دائمًا له تأثير تراكمي والملاحظ دائما أن العالم الثالث يتراجع إلى الوراء بهذا المعنى، بمعنى أنه تقريبًا واقف في موضعه والدنيا من حوله تجري بسرعة مذهلة، المشكلة هي هل نقطع المراحل نفسها التي قطعها هذا العالم المتقدم من جديد لكي نلحق به، في الحقيقة أن شيئا كهذا من المستحيل أن يحدث؛ أولًا لأن التاريخ لا يُكرِّرُ نفسَه وثانيًا لأنك حتى لو اتّبعت هذا الهدف.. فإلى أن تقطع هذه المراحل سيكون قد قطع هو مراحل أكثر تقدُّمًا أضعافًا مضاعفة عما هو حادث الآن وهكذا، فلذلك السياسة

الجديدة التي يتجه إليها كثير من المفكرين بل من الزعماء المستنيرين في العالم الثالث هي ما يسمى بسياسة حرق المراحل؛ بمعنى أنك لست مضطرًا إلى أن تسير خطوة خطوة في الطريق الآخر وإنما أن تقفز إلى إحدى المراحل المتقدمة مرة واحدة، ثبت أن هذه القفزة ليست مستحيلة، يُقال مثلًا: إن بعض أنواع الصناعات في بلد مثل البرازيل وهي من صميم العالم الثالث قفزت قفزة واحدة إلى أن وصلت إلى مرحلة شبه عصرية تمامًا في تكنولوجيّاتها، وفي تقدمها دون أن تمرّ بالمراحل السابقة، هذا شيء ليس مستحيلًا، إنما يحتاج إلى تخطيط ويحتاج إلى أن تختار ما هي العناصر بالضبط التي تريد أن تقفز فيها وما هي العناصر التي لا يكون من المهم أن تحرز فيها مثل هذا التقدم السريع، لأنه قد يكون هذا طرفًا أو شيئًا لجأت إليه البلاد المتقدمة ونحن في غنًى عنه، فالمشكلات الحقيقة معقّدة جدًا وتحتاج - كما نرى - الآن إلى نوع رفيع جدًا من التفكير والتخطيط.


الفلسفة والشارع



أكد المفكر والكاتب الكبير الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا أن عصرنا هو عصر المصالحة مع الطبيعة والتوازن معها بعد أن كان العصر الماضي هو عصر السيطرة على الطبيعة واختزال المكان والزمان، مما أسفر عن استنزاف الموارد والإنسان أيضًا، وأفلت الزمام من الإنسان وحدث الاختلال وحدثت ظاهرة التلوث التي أصبحت خطرًا أفسد البيئة والتوازن الطبيعي وهدّد حياة الإنسان على هذا الكوكب، وقال: «إن إنسان العصر يحاول الآن استعادة التوازن الطبيعي ورد اعتبار الطبيعة ويتمثل ذلك في الدعوة المتكررة للون الأخضر، وألا يكون الإنسان والطبيعة أحدهما سيد والآخر مسود، وإنما يسود نوع من الاعتراف المتبادل بينهما»، وأكّد أن عصرنا أيضًا هو عصر المصالحة بين المذاهب السياسية والاقتصادية وبين الإنسان والإنسان.. والشعوب والشعوب، وأنّ هناك عملية إعادة تشكيل للعلاقات الاجتماعية والسياسية، وبدأت تنهار نظرية الربح من أجل الربح وتحل محلّها فكرة التحرر من الجشع والطمع والاستغلال، وأيضًا عصر تكسير القوالب والمذاهب والحواجز

التي تقف بينها.. فقد بدأت تنتهي الصراعات الأيديولوجية والدليل على هذا ما حدث في الصين مؤخّرًا، ثم تناول ظاهرة رفض فكرة الطبيعة الثابتة أو الشكل الثابت للأشياء التي بدأت في هذا العصر، حيث بدأت عملية التحكم في الخلية البشرية الوراثية وعلم هندسة الوراثة وبدأت عملية دراسة التحكم في الطبيعة البشرية نفسها وتشكيلها كما نشاء، والخطر أن تتحول قصة فرانكنشتاين إلى واقع ... ثم تناول ظاهرة التطرف وأكّد أنها ظاهرة غير عصرية حيث تتعارض مع ما فرضه العصر من مفهوم المصالحة السالف ذكره وانتهى إلى أن السياسة الجديدة للعالم الثالث الآن هي سياسة قفز المراحل والبدء من حيث انتهت الدول المتقدمة لا من حيث بدأت..

الفلسفة والجمهور العادي

الدكتور: فؤاد زكريا، من المعروف أنك قدمت العديد من الدراسات القيّمة حول الفلسفة.. الفلسفة الحديثة، وقد يرى البعض أن الفلسفة عاشت قرونًا طويلة في برج عاجي، بمعزل عن الجماهير أو حركة الجماهير، والبعض يطالب الآن بنزول الفيلسوف والفلسفة إلى الشارع والالتحام بإنسان الجماهير، وإنسان الجماهير هو الاسم المهذب لرجل الشارع، فماذا يرى الفيلسوف في الشارع المصري ورجل الشارع المصري الذي يمشي بيننا الآن وماذا يقول عنه وله؟

إذا أردت أن أُلخِّص رأيي في هذا الموضوع باختصار.. أقول: إن رجل الشارع المصري يحتاج إلى الفلسفة إلى أقصى حد، على عكس ما يخطر ببال الناس أن الفيلسوف يغلق على نفسه أبوابه ويُفكِّر بين جدران أربعة ولا علاقة له بالأحداث التي تقع حوله في العالم، وإنما يُفكِّر في الأمور الأزليّة التي لا يؤثّر فيها تغير الزمان والمكان، أقول: «إنه بعكس هذا، نحن الآن أحوج ما نكون إلى

ذلـك».. الحقيقـة هنـاك الكثـير مـن المفـاهيم المغلوطـة في حياتنـا المعـاصرة، ومـا أكثـر مـا نجـد كتابًـا حتـى بعـض الأسـماء اللامعـة يـستخدمون الألفـاظ والأفكـار والتيـارات بـشكل غـير دقيـق، ويقعـون دون أن يقـصدوا في مغالطـات في عـدم فهـم، في ضـباب فكري، هذا ينعكس على القراء الذين يكتسبون ثقافتهم من قـراءة مثل هذه الكتابات، فتجد أنّ مستوى المناقشات كثيرًا ما ينحـدر إلى شيء هابط؛ نتيجة لعدم فهمنا الأشياء الرئيسية التي نتحدث عنهـا، وأيضًا أدواتنا في التحليل وفي الربط بين العنـاصر بعـضها وبعـض هي أدوات غير سليمة، فأنا ألاحـظ هـذا وقـد يكـون عـلى مـستوى العالم العربي كلّه.. أقول: «إن الكثيرين من الأجيال الجديدة يقعون ضحية أفكار ضبابية غير واضـحة وإنهـم محتـاجون أشـد الاحتيـاج لمن ينبههم إلى الطرق التي يستطيع الإنسان بها أن ينظّم تفكيره كـي يستخدم بها المفاهيم الأساسية بشكل سـليم، يكتـشف التنـاقض في فكره هو وفي فكر الآخرين، ولا يقع فريسة سهلة للمغالطات التي يحاول الكثيرون أن يفرضـوها عليـه ويوقعـوه فيهـا، هـذا كلّه شيءٌ

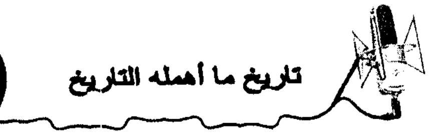
أساسيٌّ جدًّا، وأنا أرى أنه في مناقشتنا الصحفية والسياسية والعالمية في مختلف الميادين.. المسألة فعلًا تحتاج إلى هذه الوقفة الفلسفية، ولكن فلسفية بأي معنى؟ ليست بمعنى أن أعطيه مثلًا جرعةً مركّزة من نظريات أرسطو وأفلاطون، وإنما بمعنى أن أعطيه المنهج لكيفية التداول بالأفكار.. لكيفية التعامل مع الأفكار فأنا أتصور أن تقديم نماذج وأمثلة مستمرة للتحليل الفكري السليم هذا شيء مهم جدًّا لحياتنا الفكرية، بل وحياتنا السياسية المعاصرة، لأننا عندما نناقش مشكلات متعلقة بصميم الاقتصاد أو أوضاع المجتمع أو النظريات السياسية أو غيره.. نقع في ذلك النوع من المغالطات الذي أصبح شائعًا جدًّا في حياتنا المعاصرة دون أن ندري، لست أهدف على الإطلاق إلى القول لأن نترك كل هذه الموضوعات ونتحوّل إلى فلاسفة جميعًا، إنما أريد أن أقول: إن وجود جرعة فلسفية معينة في وسط هذا الجو الذي كثيرًا ما يتحول إلى شيء ضبابي، وكل إنسان يفكر في وادي أو كل إنسان يرد على شيء غير الذي قاله من يتحاور معه.. هذا كله يحتاج إلى نوع من

الضبط من آن لآخر وعملية الضبط هذه لا يمكن أن تقوم بها إلا الفلسفة».. لكن هذه فلسفة متعلقة بأسلوب تفكير الناس وأنا أعتقد أن العنصر المتبقي فعلًا من الفلسفة هو ذاك، قد تختلف التعاليم وقد تزول دولة المذاهب وينتهي عهدها وتتقادم أو لا تصير صالحة للعصر، ولكن يظل منهج التفكير هو الشيء الأساسي الذي تستطيع الفلسفة أن تقدمه للناس وتكون في ذلك قد أسدت إليهم خدمة كبرى..

منهج التفكير وأدب الحوار

نموذج لهذه الظاهرة التي رصدها بحق الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا هي تلك المعارك الصحفية التي تكاد تقترب من صورة الخناقات في الشوارع والتي دعت نقابة الصحفيين إلى هذه الوقفة الحاسمة في مواجهتها، هنا نشعر بالحاجة إلى وجود منهج للتفكير ومفهوم واضح لأدب الحوار والتحاور مع الآخرين وتصحيح مفهومنا عن الحرية.

(ﻫ) صحيح، إذا ضربت مثلًا بنفسي؛ فأنا دخلت في الفترة الأخيرة في بعض الحوارات مع أناس، وبعض هؤلاء الناس كانوا على مستوى عالٍ، علماء أفاضل، لكن الشيء الصارخ الذي استلفت نظري.. قد يأتي إنسان يحاول أن يرد على كلمة كتبتها فأجد أنه لا يرد عليّ، هو يرد على نفسه بالفعل؛ فليس «فؤاد زكريا» بالشخص الذي يتكلم عنه، بل شخص آخر خيالي صنعه هو ذاته ولا علاقة له بي ولا بما كتبت، أو يتناول مثلًا جملة في سياق عام فيركّز عليها ولو قرأ الجملة التالية لها مباشرة لوضعها في سياقها الصحيح ولأَدْرَكَ المعنى الإجمالي المطلوب؛ لأنها داخلة في إطار الصورة التي رسمها، ليست صورتي أنا، إنما الصورة التي رسمها ناتجة عن عوامل لا أدري حقيقة كنهها، مثل هذا الحوار يكونُ حوارًا ضائعًا تتبدد الجهود فيه فتصير بلا طائل، ولا يمكن أن أستفيد من هذا الحوار ولن يستفيد منه جمهور القراء أيضًا، لو لدينا هذا الحد الأدنى من المنهج الفكري السليم لتجنبنا كل هذه الأخطاء.



هل يُرجع الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا هذه الظاهرة إلى غياب منهج التفكير؟

بالطبع

هل توجد أسباب أخرى سواء اجتماعية أو سياسية أم هذا هو السبب الوحيد؟

بالطبع هناك أسباب أخرى؛ فهناك مصالح معينة تتدخل في كثيرٍ من الأحيان.. قد يكون من مصلحة إنسان أن يحوّر أو ينحرف بالحوار إلى اتجاه معين تماشيًا مع مصلحته الخاصة أو مع تكوينه الثقافي السابق أو ما شابه ذلك، لكن كل هذا يمكن التخلّص منه إلى حد كبير. لو أننا تعلّمنا كيف يكون الحوار منهجيًا بالمعنى الحقيقي.

فيما يخص النقطة التي أثرتها في ملاحظتك وهي «الافتقار إلى أدب الحوار»، تلك ظاهرة أصبحت مُلفتة للنظر، وهي مبالغة كل طرف في اتهاماته للآخر، وما أسهل تهم العمالة والخيانة والانحراف والقهر والجبروت والتسلط الآن، كل طرف يتّهم

الآخر بمثل هذه الاتهامات، أعتقد أن هذا ناتج أساسًا عن عدم الفهم، لو تفهم بعضُنا بعضا لوضع كلٌ منا الآخر في موضعه الصحيح.. فلا يجب أن أتهم خصمي بالخيانة لكي أكسب القضية، ألا يفترض أن يكون خصمي قد أخطأ في عناصر معينة وأصاب في عناصر أخرى، فلو فهمته جيدًا لوضعته في إطاره الصحيح، لكن للأسف الشديد لغتنا في الحوار أصبحت مليئة بهذا القاموس المؤسف من الشتائم ومن الاتهامات، وبطبيعة الحال يؤدي هذا إلى هبوط مستوى الحوار، ويجعل القارئ في نهاية الأمر يتسلى من دون أن يستفيد شيئًا.

نظرة للموسيقى

أيضًا من الاهتمامات الأساسية للأستاذ دكتور فؤاد زكريا دراسة الموسيقى، فما هي قصتك مع الموسيقى وما هي شهادتك على الموسيقى المعاصرة وعلاقة الإنسان المعاصر بها؟

قصتي مع الموسيقى أمر قديم... شيء فطري أو غريزي وإن كان العلم الحديث يكره استخدام هذه الألفاظ، لكن هذه

الألفاظ أسهل تعبير نجده للكلام عن ذلك الشيء الذي يجده الإنسان كاستعداد طبيعي موجود فيه، كنت أشعر بأن مسألة الأذن الموسيقية وحب الموسيقى موجود لديَّ منذ طفولتي، اهتممت بالموسيقى، بل وحاولت أن أعلم نفسي فيها بشكل ذاتي وكامل.

ألم تكُ توجد أيّة مؤثرات خارجية؟

تقريبًا.. لا، ساعدني في ذلك مثلًا الراديو لا أكثر من ذلك، حتى وصلت في مرحلة من المراحل لمستوًى لا بأس به، بدأت أقرأ في النظريات وأتعمّق في تاريخ الموسيقى العالمية، كان ذلك قبل أن أعرف كلمة واحدة عن الفلسفة، فقد سبق اهتمامي بالموسيقى الاهتمام بالفلسفة، فمن الممكن لو كنت مثلًا في بيئة من نوع مختلف.. في أسرة تشعر بأن هذا الطفل لديه مقدرة خاصة في ميدان الموسيقى لاختلفت وجهتي إليها، ولكان الحديث الآن خاليًا من عنصر الفلسفة تمامًا، وأصبح كلّه مرتبطا بمسألة الموسيقى. لكن على أيّة حال.. الإنسان لا يندم على ما حدث،

لأنني ما زلت احتفظ باهتمامي على سبيل الهواية بالموسيقى حتى الآن..

هل هذا الاهتمام مجرد الاستماع أم العزف والنقد أيضًا؟

كنت أعزف قديمًا، لكن ضيق الوقت أبعدني عن هذا، لكن لو أتيت لي الآن بآلة مثلًا من ذوات الأصابع كـ«البيانو أو الأورج» أو غيرهما وطلبت مني آداء لحن معين.. من المملكن أن أعزفه على الفور بالسماع، لكن هذا شيء بدائي بالنسبة للتقدم الموسيقي، إنما فقط هو دلالة على وجود أذن موسيقية، فالوقت وظروف الحياة بشكل عام لا يسمحان بأكثر من هذا، لكنني استمع على نطاق واسع جدًّا وأعتبر اليوم الذي يخلو من سماع قطعة موسيقية رفيعة يومًا يفتقد عنصرًا أساسيًا من حياتي، وأرى اللحظات التي أقضيها مع الاستماع إلى الأعمال الموسيقية الرفيعة تضيف إليّ طاقة معنويّة، تعيد قدرًا من التوازن الانفعالي الذي قد تُخلّ به ظروف الحياة اليومية، تمنحني طاقة ليس فقط في الجوانب العاطفية، وإنما أيضًا في الجوانب العقلية نفسها، أشعر بمزيد من

الصفاء العقلي، أجد نفسي بعد أن أكون قد استمعت إلى عمل موسيقي كبير أفكر في بعض الأحيان بشكل أفضل، فالموسيقى عندما تكون رفيعة المستوى فهي شيء رائع.

هل تقدم هذه الوصفة السحرية لإنسان العصر؟ هل حقًا تستطيع الموسيقى أن تحلّ الكثير من المتناقضات التي يحفل بها العصر والتي يعيش فيها إنسان العصر؟

مع تحفظين؛ التحفّظ الأول: لا يشترط لكل إنسان أن تُحْدِث فيه الموسيقى هذه التأثيرات؛ لا بد أن يكون للفرد الاستعداد لأن يستوعب ويتذوق الموسيقى، فتتغلغل في داخله محدثة تلك التأثيرات المعينة، وهناك إنسان مثلًا يُفضِّل أكلةً ظريفةً على الموسيقى وهكذا التحفظ الثاني: رغم كل اعترافي بنعمة الموسيقى على الإنسان لا أريد أن أجعل من الموسيقى مجرد وسيلة لا غاية، فلا أقدمها كوصفة بالتعبير الذي استخدمته على أنها مجرد وسيلة يستخدمها الإنسان لصفاء ذهنه.

أو يعيد التوازن.

نعم، هي تؤدي إلى هذا، لكن أنا لا أريد أن أستخدمها كغاية، فهذه النتائج تحدث من تلقاء نفسها.. فلا ألجأ إليها مثلا كما يلجأ الشخص المضطرب نفسيًا إلى قرص مُنوم أو قرص مُهدِّئ كي يعيد توازنه.

بمعني أن ترفع الموسيقى إلى هذه المكانة لأن تكون غاية في حد ذاتها، ليست وسيلة إلى غاية.

هي لابد أن تكون كذلك، إنما أن تستخدم كالمهدئات فأنا أرفض هذا.

بديهي إذن أن تكون من هواة الموسيقى الكلاسيكية.

صحيح، وتجربتي معها طويلة جدًا، منذ فترة المراهقة حتى الآن.. وطوال هذه السنوات الطويلة لم أشعر في وقت من الأوقات بأني ارتويت من هذا المنبع الذي لا ينفد.

ماذا عن الموسيقى المعاصرة التي تملأ آذاننا ليل نهار وما هي شهادتك عليها؟

الموسيقى المعاصرة مرتبطة كما نعلم جميعًا بسنّ معين، محبو هذه الموسيقى عادة يكونون شبابا أو شابات صغار ممتلئين بالحيوية، وقد يصف بعضهم الموسيقى العالمية أو الكلاسيكية بأنها هادئة أكثر من اللازم، هم يريدون الموسيقى التي تجعلهم يقفزون ويتراقصون، من هنا تأتي قيمة هذه الموسيقى لهم، تؤدي فعلا وظيفة معينة وهي تماشيها مع الطاقة الحيوية الفائضة التي توجد في هذه المرحلة، ويعني أنا لاحظت أن هذه الموسيقى الخفيفة، الإيقاعية، واسعة الانتشار في الخارج وأن الموسيقى الأخرى لها جمهورها الخاص، الأقل عددًا.. سأقص عليك تجربة حدثت لي في رحلة سفر.. كنت أتجول في شوارع بعض البلاد الاسكندنافية (النرويج السويد الدنمارك) في إحدى هذه العواصم، وهناك شوارع في تلك البلاد لا يسمح فيها بمرور السيارات، وتكون للمشاة فقط، تُعرَض فيها مختلف أنواع الفنون.. يعرضها شباب، فتجد مجموعة يعزفون موسيقى ويضعون أمامهم صندوقًا، وكل واحد من المارة إذا أعجبته هذه الموسيقى يضع مبلغًا من المال ولو

بسيطا، ويقومون بذلك من أجل تحصيل الرزق، لاحظت شابًا بمفرده يعزف على الجيتار مقطوعات كلاسيكية لباخ(*)، وكان عازفًا جيّدًا.. لاحظت أن كمية المبالغ التي حصل عليها هذا الشاب من المارة هائلة، وقفت نحو ١٠ دقائق أستمع إليه، لأنه أعجبني فعلًا.. في هذه الدقائق العشر وجدت أنه جمع ثروة صغيرة من المارة.

رغم أن هؤلاء المارة من الشبان يوميًا ما يذهبون للمراقص والديسكو.. لكنهم قدّروا هذا الذوق الرفيع، بينما الآخرين الذين يعزفون المقطوعات العصرية لم يحصلوا على عُشر ما حصل عليه صاحبنا، هذا دليل على وجود نوع من الاحترام الدفين لهذه الموسيقى؛ لأنك تشعر أن هذا الفن يحتاج إلى خبرة وإلى موهبة في

(*) **يوهان سباستيان باخ**: بالألمانية (Johann Sebastian Bach: عازف أورغان ومؤلف موسيقي ألماني ولد في 1685 ورحل في 1750 ميلادية، يعتبر أحد أكبر عباقرة الموسيقى الكلاسيكية في التاريخ الغربي.

تأليفه وفي عزفه وفي أدائه وفي التدريب عليه، فلا بد إذن من تقدير كل هذا.

مصر والموسيقى المعاصرة

لو انتقلنا إلى المستوى المحلي وسألت الدكتور فؤاد زكريا عن رأيه فيما سمعه داخل مصر من الغناء والموسيقى فما هي اشهادته على ذلك؟

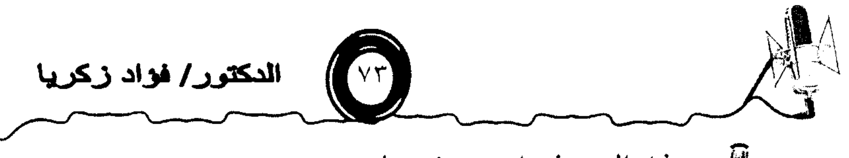
لست في حاجة لأن أكون في مصر كي أستمع إلى الموسيقى المصرية؛ فالموسيقى المصرية منتشرة في كافة أرجاء العالم العربي ومسيطرة تمامًا.

عظيم.

ليس بشكل كبير

أيعتبر هذا تحفظًا آخر؟

نعم، فهو أمر عظيم شكلًا.. من ناحية السيطرة فالسيطرة موجودة بلا منازع، لكن هل هي سيطرة مفرحة تسعدنا أم لا؟.. هذا موضوع آخر.



هذا بالضبط ما نريد تفصيله.

نعم، فهناك عيوب كثيرة توجد في هذه الموسيقى؛ رغم أن المستوى في البلاد العربية الأخرى أقل من هذا ومن هنا يأتي هذا التوغل الموسيقي المصري في كافة أرجاء العالم العربي، بحيث إنك لا تشعر بالبعد عن مصر في أيّة لحظة من اللحظات.. للأسف نحن نسير في طريق مسدود في ما نسميه بموسيقانا المحلية، وهي كما أردد دائمًا ليست موسيقى بالمعنى الحقيقي، هي الأغنية.. نحن لا نملك موسيقى، الأغنية هي الشكل الوحيد الذي تتخذه الموسيقى أو الفن الموسيقي في بلادنا، ما عدا ذلك هامشيٌّ جدًّا وليست له قيمة في نظري، صارت الأغنية بكلماتها وموضوعاتها تكرر نفسها، وأصبحت الآن الوظيفة التي تؤديها هي التسلية؛ تسمعها في فترة تناول العشاء أو وقت التحدث مع الأصدقاء أو يكون لديك مجموعة من الضيوف وتريد أن تصنع خلفية خفيفة تسليهم.. إلخ



تعتبر وسيلة إلى غاية وليست غاية مثلما تريد.

نعم، ووسيلة ضئيلة الشكل أيضًا، لم تعد الموسيقى تؤدي وظيفة الفن الذي يقف أمامه الإنسان صامتًا ويحاول أن يمتلأ بتأثيره من الداخل، لم يعد هذا موجودًا؛ لأن موضوعات الأغنية مستهلكة، متكررة مبتذلة؛ إمّا صورة من صور الحب لا علاقة له على الإطلاق بما نراه حولنا في العالم، فيها دائمًا الشكوى والأنين والكلام عن قسوة الحبيب.. إلخ، صورة تجعل الحب شكلًا من أشكال الاضطهاد السياسي مثلًا.

الحـــب

أيعتقد الدكتور فؤاد زكريا أن شكل الحب قد تغير في العصر الحالي؟

نعم، أتصور أنه يأخذ صورًا واقعية أكثر فأكثر؛ فالرومانسية القديمة تتراجع والواقعية تزحف، لا أقول هذا مدحًا.. قد تكون الرومانسية أفضل، لكن ضغوط الواقع الحالي فرضت نفسها، حتى في هذا الميدان العاطفي الداخلي.

يبدو أن الأغنية لم تواكب هذا التغيير الذي وقع واستُحْدِث وظلت في مكانها..

في عالمٍ آخر.

نعم.. تأبى الاعتراف بالواقع الجديد ..

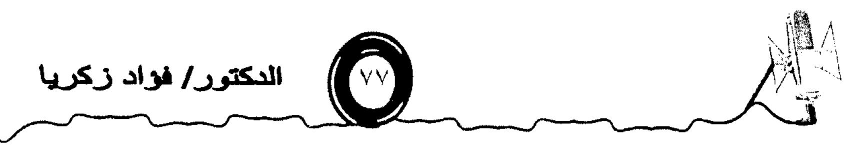
في عالم آخر منعزل، والألحان نفسها ليس فيها أي نوع من التطوير، إذا تطورت فلا تتعدى إدخال آلة جديدة وهذا ليس تطويرًا؛ لأنه من المفروض أن يعرف الدارس الجيد إمكانياتها ويطور اللحن كي يُعبِّر عن هذه الإمكانيات لكن هذا لا يحدث، فهو يجعلها كفرد في قطيع والقطيع يسير في الطريق القديم نفسه، والآلة الجديدة تسير وراء هذا القطيع، تؤدي العمل نفسه.

نستمع إلى هذه الشهادة من الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا ببعض التحفظ وأسأل أيضًا: هل وجودك في الكويت لوقت طويل لم يتح المتابعة الدقيقة للإنتاج الفني الحديث والأغاني المصرية الحديثة، بالتأكيد هناك تجارب تستحق الوقوف عندها أيضًا ومحاولات للتطوير وملحّنين مجتهدين ومجددين...

كما قلت: مسألة الوجود في أي بلد عربي آخر لا تُحدِثُ تأثيرًا كبيرًا في هذا الموضوع، ولكنني – في الحقيقة -- كان لا بد أن أن أقوم بهذا التحفّظ، هناك محاولات هذا صحيح، لكنني أتحدث عن نوع الموسيقى، الأكثر شيوعًا في أجهزة الإعلام المُسيطِر، ما يُسمى في التعبيرات الحديثة بموسيقى المؤسسة، التي لها الكلمة ولها الذيوع والانتشار والتأثير.. هذا النوع من الموسيقى هو الذي تنطبق عليه الملاحظات النقدية التي أقولها، أمّا المحاولات الأخرى فأنا بالطبع أحترمها إلى حد كبير، وأريد فقط أن أقول: «إنها حتى الآن لا تزال محاولات هامشية غير معترف بها والمسيطرون على الفن الموسيقي هم العناصر الأخرى التي انتقدتها».

الزمنّ الرديء

الدكتور فؤاد زكريا، يسمي البعض هذا العصر باسم الزمن الرديء، ولعل آخر من استخدم هذا التعبير هو السيد ياسر



عرفات[٦] رئيس منظمة التحرير الفلسطينية في وصفه للواقع العربي المرير، فما تحليلك لهذه التسمية عالميًا وعربيًا؟

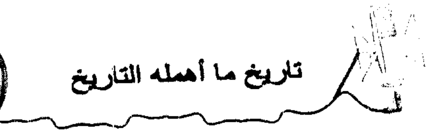
[٦] ياسر عرفات (٢٤ أغسطس ١٩٢٩ - ١١ نوفمبر ٢٠٠٤)، سياسي فلسطيني ورمز لحركة النضال الفلسطيني من أجل الاستقلال. اسمه الحقيقي محمد ياسر عبد الرؤوف عرفات القدوة الحسيني وكنيته «أبو عمار». رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية المنتخب في عام ١٩٩٦. ترأس منظمة التحرير الفلسطينية سنة ١٩٦٩ كثالث شخص يتقلد هذا المنصب منذ تأسيس المنظمة عام ١٩٦٤، وهو القائد العام لحركة فتح أكبر الحركات داخل المنظمة التي أسسها مع رفاقه عام ١٩٥٩. كرس معظم أوقاته لقيادة النضال الوطني الفلسطيني مطالباً بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره. قاد الكفاح الفلسطيني من عدة بلدان عربية، من بينها الأردن ولبنان وتونس، ودخلت قوات المنظمة مع القوات الأردنية في حرب أهلية داخل المدن الأردنية، وبعد خروجه من الأردن أسس له قواعد كفاح مسلح في بيروت وجنوب لبنان، وأثناء الحرب الأهلية في لبنان انضم إلى قوى اليسار في مواجهه قوى لبنانية يمينية. وخرج من لبنان إلى تونس بعد أن حاصرته القوات الإسرائيلية في بيروت الغربية بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان. أهم تحول سياسي في مسيرته حدث عندما قبل بقرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢ بعد انعقاد مؤتمر مدريد، وبعد قبول المنظمة بحل الدولتين دخل في مفاوضات سرية مع الحكومة الإسرائيلية تمخضت عن توقيع اتفاقية أوسلو والتي أرست قواعد سلطة وطنية فلسطينية في الأراضي المحتلة وفتح الطريق أمام المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية على الحل الدائم. بعيد توليه السلطة، فاز مع إسحاق رابين وشمعون بيريز بجائزة نوبل للسلام عام ١٩٩٤.

نحن الآن قد انتقلنا إلى ميدان سياسي مائة في المئة، لأن ياسر عرفات عندما يطلق تسمية كهذه فهو يقصد بها الواقع العربي.. العلاقات بين الدول العربية، وموقع العرب عالميًا، بلا شك أنا متفق على هذه التسمية وأوافق عليها، وأتصور أن العرب تفوتهم فرص كثيرة كانوا يستطيعون فيها أن نجعل لأنفسنا مكانًا في هذا العالم الذي نعيش فيه، لكن الفرص تضيع بسرعة وصورة المستقبل بالفعل تبدو قاتمة إلى حدٍّ كبير؛ على سبيل المثال: كنا نستطيع أن ننال مكانتنا من خلال الثروة البترولية أو من خلال الموقع الاستراتيجي أو من خلال الاستغلال الذكي للتنافس بين المعسكرات الإيديولوجية المختلفة، لكن كل هذه الفرص تضيع وتتبدد، ولا يبقى في نهاية الأمر سوى التناحر والتشاحن بين العرب، نسينا أعداءنا الرئيسيين إلى حد بعيد وتذكرنا فقط الخلافات الفرعية التي تقوم بيننا من أجل مصالح ضيقة، ويبدو أن أعداء العرب نجحوا في أن يصدّروا الخلافات إلى داخل العرب أنفسهم، من هنا تجد عناصر الاقتتال والمشاحنات التي لا يخلو منها يوم، بصراحة.. صورة العربي الآن في العالم حتى في العالم الثالث

سيئة سيئة إلى حد كبير؛ هي صورة أناس لا يكفّون عن ضرب وقتل بعضهم بعضا، وعمل مناورات ضد بعضهم ونسوا مشكلاتهم الرئيسية، أعداؤنا في داخلنا وفي خارجنا، مشكلاتنا تكفي لشغلنا ألف سنة إلى الأمام.. كل هذا نسيناه وتذكرنا فقط أن كذا يعادي نظام حكام فلان، فنرسل إليه رجلين مثلًا من رجال المخابرات فيقتلونه في الفندق الذي يعيش فيه.. مهزلة، ومن هنا أقول: إن ياسر عرفات وغيره على حق في استخدام كلمة الزمن الرديء..

دكتور فؤاد زكريا، ما هو تقييمك - على المستوى الثقافي البحت - للمثقفين ودرجة وعيهم لهذا الدور؟

المثقفون المصريون هم شريحة من المجتمع يسري عليهم ما يسري على بقية المجتمع، فالمثقف بطبيعة الحال يتميز دائمًا بقدر أكبر من الوعي، ومن الممكن أن يكون سابقًا مجتمعه بخطوات؛ لأنه هو الذي يتأمل صورة المستقبل، ولكن لا يجب أن نقسو على مثقفينا أكثر مما يجب؛ كل المشكلات وكل العيوب التي عانى منها المجتمع لا بد في نهاية الأمر أن تنعكس على المثقف، فمن ناحية



الوعي: نحن نجد أن المثقف لا يستطيع أن يجد الوسيلة الكافية التي يوصل بها وعيه إلى الجماهير، هناك نوع من الفجوة الاتصالية بين المثقف وبين الجمهور، هذا بطبيعة الحال يؤدي إلى قدر من العُزلة لدى المثقف، هذه العزلة ناتجة من عدم التجاوب الجماهيري وانعدام رد الفعل.

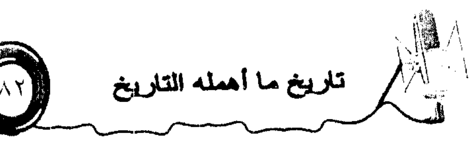
المثقف يحتاج باستمرار إلى أن يشعر بنوعٍ من رد الفعل الذي تولده أفكاره وإبداعاته لدى الجماهير، لأن المثقف يصحح نفسه ويطورها من خلال ردود أفعال الغير تجاهه، لكن أزمة الاتصال بين الاثنين تخلق نوعًا من الانعزال السلبي.

لا أقول: إن أزمة الاتصال مطلقة، نحن نشعر في كثير من الأحيان أن المثقف يكتب لنفسه أو لفئة محددة في نفس مستواه الثقافي، لكنه لا يجد الوسيلة التي ينشر بها آراءه وأفكاره وابداعاته بين الجمهور الواسع.. أزمة ضخمة ليست في متناول يد المثقف نفسه حلها في كل الأحيان؛ أحيانًا يكون المجتمع بأكمله مسؤولا عن مثل هذه الأزمات.

متناقضات العصر الحديث

عودة إلى رأس الموضوع فيما يخص العديد من المتناقضات التي تتعايش في عصرنا بين تقدّم شديد وتخلّف أشدّ وتطرّفات للأمام والخلف، بين آكلي لحوم البشر ومقدسي لحوم البقر كما يقولون، كيف يفسر الدكتور فؤاد زكريا تزايد كل تلك المتناقضات في عصر تقاربت فيه الشعوب وأصبح العالم كلّه قرية إليكترونية بثورة الاتصالات وحدوث عكس المتوقع..

الجشع والمصالح الخاصة هي السبب وراء هذه المتناقضات، وفي معظم الحالات تكون السبب الحقيقي في هذا التناقض الحاد، التعارض الأساسي في المصالح بين الذين يرغبون في أن يظلوا مستمتعين بكل ثروات هذا العالم والذين يريدون أن يكون لهم مكان تحت الشمس دون أن يعتدوا على الآخرين، فكل هذا التقدم التكنولوجي الذي أدى إلى تكوين القرية الإلكترونية الواحدة التي تحدثت عنها حتى الآن ما زال يُستغل من أجل خدمة مصالح الجشعيّن والطامعين، لم يستغل بعد من أجل خدمة



البشرية بشكل عام وإلى أن يأتي هذا اليوم سنظل في مثل تلك المتناقضات..

الحقيقة، الدكتور فؤاد زكريا على مدى شهادتكم كان هناك وضوح في التركيز على بعض القيم الهامة التي تطرح نفسها لإنسان العصر والإنسان المصري الذي يعيش بيننا الآن.. يجب أن يتمسك بها ويعضّ عليها بالنواجذ - كما يقولون - وهي قيم توارثتها أجيال مصر منذ فجر الضمير، ففي هذه الجزئية من الشهادة ما هي التوصية التي تحب أن نخرج بها؟

أتمنى أن نركز كل طاقاتنا في كافة الميادين، ميدان التعليم والإعلام وغيره؛ من أجل تأكيد القيم العصرية من دون عدوان على قيمنا الاجتماعية الأصيلة، لكن من المهم جدًا باعتبارنا مجتمع يسير في طريق النمو ويُحاول أن يقطع المسافات الشاسعة بينه وبين العالم المتقدم في أسرع وقت ممكن.. لا بد أن نبذل مجهودًا أكثرَ مما بـُذل حتى الآن، في ميدان التعليم.. لدينا إمكانيات هائلة لم تُستغل، فكيف نُعلّم مثلًا الطفل أُسُس ومبادئ التفكير العلمي

الصحيح منذ صغره، كنت أدعو إلى هذه الدعوة من عشرات السنين.. أتمنى أن أرى ضمن مقررات التعليم العام كتابًا صغيرًا يبدد لدى الطفل الخرافات والأساطير التي يجدها حوله في سنوات عمره الأولى في القرية أو المدينة، والتي تظل راسخة في عقله وتُشكّل قوّةً خطيرةً تمنعه من أن يفكر بشكلٍ مُتحرِّر ومبدع فيما بعد، فماذا لو قدّمنا بشكل مبسّط بعض الأفكار التي يحتاج إليها مثل هذا الطفل في حياته المُقبلة ونبدد له الأساطير والأوهام الموروثة..

نصل بهذه النقطة الأخيرة إلى ختام شهادة ضيفنا على العصر وكما تعودنا في ختام كل شهادة أن نطلب من شاهدنا على العصر مُلخصًا لما جاء في شهادته يركّز فيه على أهم النقاط الأساسية التي يودّ أن تظل مع القارئ..

الملخص الذي أريد أن أقوله هو أن العالم من حولنا يموج بالتيارات الجديدة والمتلاحقة ومن مصلحتنا أن نتابع مثل هذه التيارات، ولا نغمض عيوننا عنها كما يحاول أن يدعونا

البعض في هذه الأيام ممن يريدون أن نتعلق فقط بالماضي وينكرون تمامًا إمكانات الحاضر واتجاهات المستقبل، فهناك تغيّرات لا يحلم بها أوسع خيال لدى الإنسان وشيكة الحدوث في العالم، يجب أن نتنبه لها ومن جهة أخرى: نحن مقبلون على عصر سوف نتخلى فيه عن كثير من أوهام الثبات التي كانت ملازمة لنا وسوف نعترف بأن التغير حقيقة أساسية على الإنسان حتى على ما نسميه بالطبيعة البشرية نفسها. لا بد أن نعي هذا جيدًا ونهيئ أنفسنا له منذ الآن؛ نهيىء أنفسنا له بفكرنا وعلمنا وفننا وتعليمنا وإعلامنا، وبكل المجالات التي يستطيع العقل البشري أن يتحرك فيها..

في ختام هذه الشهادة الثريّة أشكر المفكر والكاتب الكبير الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا.

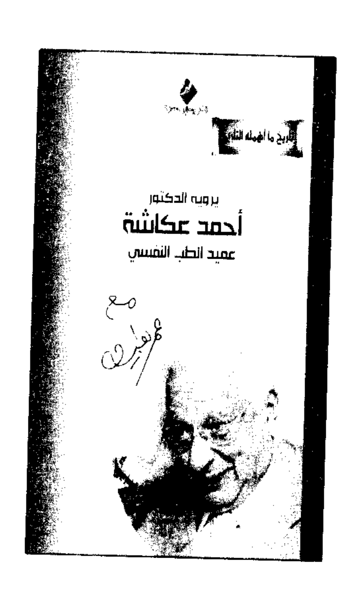
الفهـــــرس

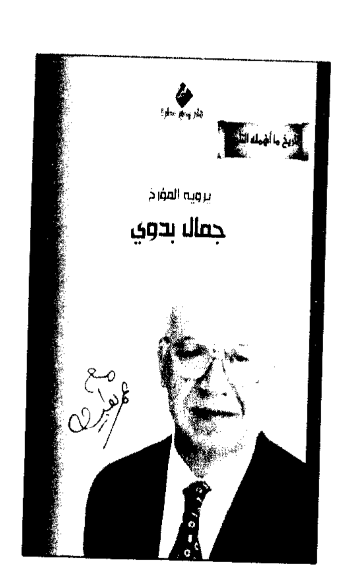
المـــــوضـــــــوع	رقـــم الصفحـــة

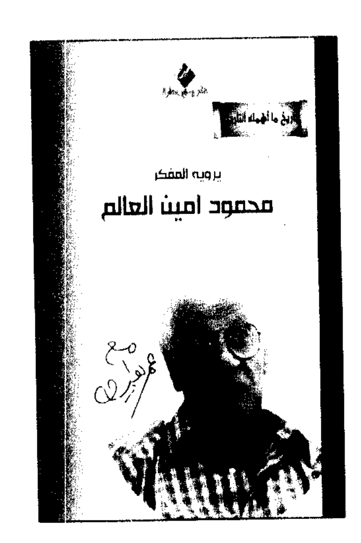
صدر من هذه السلسلة

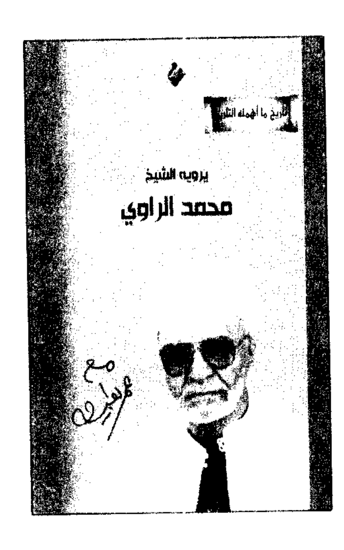


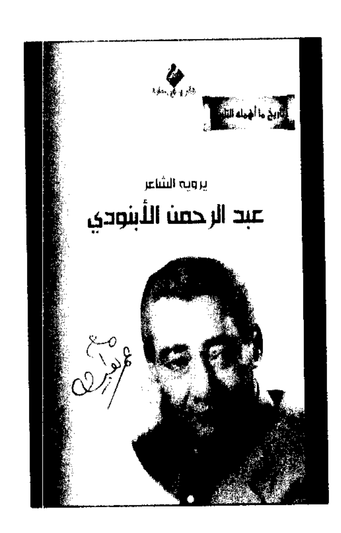


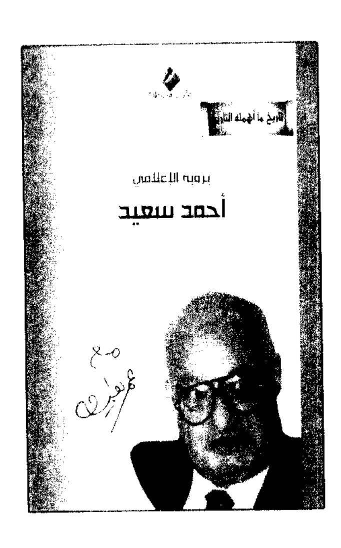


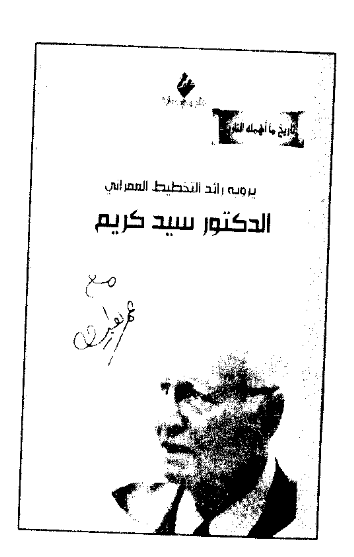



تاريخ ما أهمله التاريخ
يرويه المفكر
محمود أمين العالم

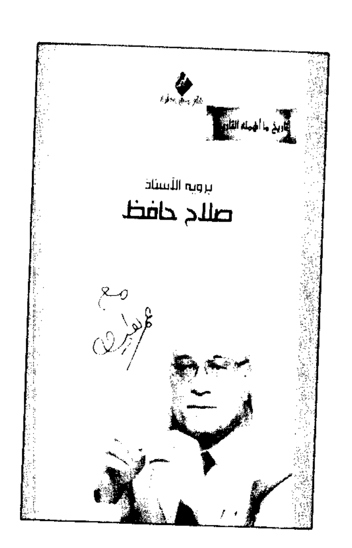

تاريخ ما أهمله التاريخ
يرويه الشيخ
محمد الراوي


تاريخ ما أهمله التاريخ
يرويه الشاعر
عبد الرحمن الأبنودي

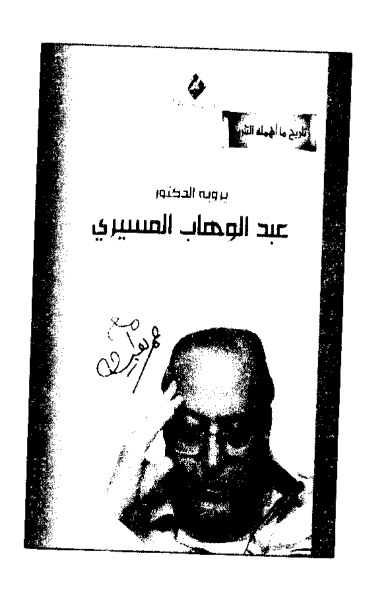

تاريخ ما أهمله التاريخ
يرويه الإعلامي
أحمد سعيد



برؤيه رائد التخطيط العمراني
الدكتور سيد كريم



برؤيه الأستاذ
صلاح حافظ



برؤيه الدكتور
عبد الوهاب المسيري



برؤيه الكاتب
جمال الغيطاني